

١٠ - بين المعري ودانتى

في رسالة الغفران والكوميديا المقدسة

بقلم محمود احمد الفسوى

تحدثنا معك في المقال الماضى عن ابن القارح ، وتوسله بالسيدة فاطمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان من أمر هذا التوسل والأذن له بدخول الجنة

والآن ماذا صنع ابن القارح ؟ انه تعلق بركاب سيدنا ابراهيم عليه السلام حتى بلغ الصراط ، وأشير اليه بأن اعبره ، فلما وجد نفسه لا يستمسك قالت الزهراء لجارية من جواريتها يا فلانة اجيزيه . فجعلت هذه تمارسه وهو يتساقط عن يمين وشمال ، فقال لها : يا هذه ان أردت سلامتى فاستعملى معى قول القائل :
ست إن أعيالك أمرى فاحملىنى زقفونه

فقلت : وما زقفونه ؟ !

فقال أن يطرح الانسان يديه على كتف الآخر ويمسك بيديه ويحمله وبطنه الى ظهره ، أما سمعت بقول الجللجلول من أهل (كفر طاب)

صلحت حالتى الى الخلف حتى صرت أمشى الى الورى زقفونه

بناء تتمثل فيه معانى القوة والخشوع والرهبة أصلح للعبادة من تصميم هذا الهيكل الفرعونى ؟ وهل يمكن إيجاد بيئة تحيط بالمعبد من الوجهة المعنوية والفنية أقرب للكمال من تلك البيئة التى هيأها هذا الفنان الحاذق ؟ أظن أنه لا يمكن أن نجيب على تلك الأسئلة إلا بالنفى . ولقد أجمع عظماء الفنانين فى العالم على أن المعبد المصرى هو صاحب المنزلة الأولى بين معابد العالم ، واذا أمكن تصور منزلة أسمى من الأولى لكانت هى منزلة معبدنا ، وبالتالى فن عمارتنا الذى نفر ونهرب منه ، وتناسى منزلته حتى فى هذا العصر الذى هو عصر تجديد وانقلاب ، لم يفكر أحد من كبار الفنانين المصريين فى إحياء هذا الفن الجميل ، أو ادخال روحه فى المنشآت الحديثة ، الا اذا استثنينا بعض الشواذ .

محمد على

قسم العمارة - مدرسة الفنون الجميلة العليا

الضخمة التى تتكون من هرمين شائخين ناقصين متقاربين ، يتوسطهما باب المعبد الصغير ، وعلى جانبيه تماثلان عظيمان (يصل طول كل منهما الى عشرين مترا كما فى معبد « أبى سمبل » شمال الشلال الثانى) ، وهذان التماثلان يمثلان فرعون ، ويرى الواقف بباب المعبد عدة أبواب متتالية ومتساوية الاتساع ، تقع جميعها على محور واحد عمودى على الواجهة غالباً ، وقد تصل المسافة بين المدخل والباب الأخير الى ثلثمائة متر ، وهذا الباب الأخير هو باب مخدع الآله الأعظم .

وأول ما يلتفت نظر الداخل فى المعبد هو البهو الكبير ذو الأعمدة الضخمة ، وقد بلغت مساحة ذلك البهو الفخم فى معابد الكرنك ثلثمائة متر فى خمسين مترا ، وهذا البهو مسقف بكتل عظيمة من الأحجار يحملها أربعة وثلاثون ومائة عمود ، مصطفة فى ستة عشر صفاً ، وطول أعمدة الوسط منها ثلاثة وعشرون متراً وقطرها ثلاثة أمتار ونصف . فتصور بهواً يحوى هذا العدد من هذه الأعمدة التى بلغ ارتفاع الواحد منها ارتفاع عمارة مكونة من سبع طبقات تقريبا . كيف يكون تأثير مثل هذا البهو الرهيب الفخم فى نفوس المصلين ؟ ألا يمكننا اعتبار هذا البهو رمزاً للقوة والبطش كما أنه مثال العزلة والرهبة ؟ إن طول قامة البشر فى هذا البهو لا يتجاوز قاعدة العمود . وبين تلك الأعمدة يقوم الشعب بتأدية الصلاة ؛ أما فرعون وحاشيته فيستمرون فى موكبهم مخترقين الردهات والدهاليز حتى يصلوا الى مخدع المعبود ، وهو مظلم لا يصله الضوء إلا من فتحة واحدة فى السقف ، قد وضعت بهندسة خاصة بحيث لا تضىء من المكان سوى تماثل الآله ، حتى يخيل للرأى أنه يشع الضوء من جسمه . وأمام المعبود وتحت قدميه يوجد نضد عظيم من الحجر ليضع عليه فرعون قربانه بين التراتيل والتعاويد الدينية ذات الأنغام الساحرة الرهبة .

ولو كانت لى موهبة فى الايضاح أرقى من ذلك لاستطعت أن أضع لكم صورة أقرب للحقيقة للمعبد والدرجة التى وصل اليها من الابداع ، ولكن عظمة ذلك الفن وروعته فوق أن يصفها قلمى الضعيف .

وهنا أقف بسيدى القارىء لأسأله : هل يوجد مكان أنسب لبناء المعبد من المكان الذى اختاره الفنان المصرى ؟ هل يوجد

دانتى بعنق فرجيل، وساروا قليلاً حتى خلاصوا من الجحيم، وأسلمت الجحيم دانتى الى الأعراف فدخلها وسار في جنباتها يتحدث مع العصاة الذين يتطهرون من ذنوبهم ومن آثامهم، حتى اذا قارب نهايتها رأى نهراً ينفرج عن ماء رقرق، فبصر بالنهر وبفتاة على سيفه الآخر، وهى تغرد بصوت مطرب وتقطف الزهرات، فطرب دانتى واقترب منها فقصت عليه حديث النهر، وأن اسمه نهر ليتى (Iete) نهر التوبة، من اغتسل منه طهر من ذنوبه، وبرى من آثامه، ثم عاودت الفتاة الغناء، وعاد له من الفتاة الطرب

ثم تراءت أمام عينيه أضواء تشع في أرجاء الغابة، وتواردت على سمعه نغمات حلوة لم يكذب طرب لها حتى تراءت له من بعيد سبعة أجسام كأنها شجرات من خالص الذهب، تبينها فاذا هى مصاييح تحمل أضواءها كل ألوان الطيف، ويتلوها أربعة وعشرون شيخاً يجلسهم وقارهم، وتلقى عليهم الهيبة رداءها، وتكلل رؤوسهم زهرات الزنبق وتتبعهم عربة يقودها حيوان يشبه الأسد، بيد أن له رأساً، وأن له أجنحة كأجنحة الطيور ورءوسها

تلك العربة كانت تحمل بياتريشى جاءت تستقبله لتكون دليله في جنبات الفردوس المحرمة على فرجيل أن يلج بابها. وقد افتن شاعر الطليان في وصف بياتريشى وعربتها، وما احتف بها من راقصات، ومن سحائب الزهور افتناناً جعل ذلك الوصف في طليعة كوميديته ابداعاً وفتنة. وكذلك نرى في رسالة الغفران وصف الطريق الى الفردوس، وامتداح رضوان وزفر، ودعابة الجارية على الصراط ناحية جد مخصصة من خيال أبى العلاء ومن ابداعه ذلك هو طريق الفردوس، وها هو ذا وصفه في الروايتين،

فأما الفردوس وطبقاته وأقسامه وما تخيله المعرى من حيات يسبحن في الخلد فوق كثران العنبر. وقد كان منهن في الدار العاجلة من تسكن في حجر بدار حمزة بن حبيب امام القراء. ونقمت عليه قراءته واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام (بخفض الأرحام) بعد أن كانت تسكن من قبل في دار الحسن البصرى. ثم تحولت عنه لأنها رغبت عن بعض حروف في قراءته حين يقرأ الإنجيل. وقالق الأصباح (بفتح الهمزة فيهما). فأما الحديث عن تلك الحيات والرد على المعرى في تخطيطه حمزة فموعداً به العدد القادم

« يتبع »

فقلت : ما سمعت برقفونه ، ولا الجليلول ، ولا كفر طاب
إلا الساعة !!!

ثم تحمله وتمر به كالبرق الخاطف حتى يبلغ الجنة ، فيمنعه رضوان طالباً منه جواز المرور ، فيطلب ابن القارح ورقة من صفصاف الجنة ليرجع بها الى الموقف ، ويأخذ عليها الجواز ، ولكن رضوان يأبى عليه هذا ، فيقول ابن القارح إنا لله وإنا اليه راجعون ، لو أن للأمير أبى المرجى خزاناً مثلك ، ما وصلت أنا ولا غيرى الى قرقوف^(١) من خزانته

ولا يطول بينهما الحوار ، حتى يرجع اليه ابراهيم عليه السلام فيجذبه جذبة شديدة يحصله بها في الجنة . . . أفرايت اذا كيف كان سبيل المعرى الى الفردوس مليئاً بالدعابة وبالمرح حين سقوط صك التوبة من ابن القارح ، وحين تدخله في فض النزاع بين أبى على الفارسي ومشاجريه ، وفي دعابته مع الجارية ، وهو على الصراط في أخرج المواقف وأدقها . فهل كان طريق دانتى كطريق المعرى ، كله دعابة وظرف ؟ لا . فقد كان طريق دانتى على العكس من طريق المعرى ، آلام وأوصاب ، وأهوال وعذاب . . . لقد كان طريق دانتى على النار يعيرها أولاً ثم (المطهر) بعدها حتى يصل الى الفردوس . فما ظنك بذلك الطريق الشائك المترع بالأهوال والآلام ؟ !

فبينما هو في غابة موحشة اذا به يتخلص منها الى أكمة تكلل هامتها شمس الصباح فيهم بصعودها حتى اذا سار قليلاً رأى نمرأ قبيحاً يسد عليه شعاب طريقه ، ثم يرى أسداً مخيفاً وذئبة قاحلة حدقته بنظراتها ، فكرر راجعاً الى سفح الأكمة فرقاً ورعباً ، فثار في نفسه اضطرابها حتى أنه (فرجيل) فاستغاثه فهدأ روعه ، وحدثه بأن سبيل النجاة من هاتيك المخاطر هى رحلة في أعماق الجحيم ، ومنها الى الأعراف ، ثم الى الفردوس . ثم حدثه بأن بياتريشى أوفدته لانتقاذه مما هو فيه من أخطار . فاطمأن قلبه وهدأ روعه وعقد عزيمته على اجتياز الجحيم فاجتازها بين أنين العصاة وعويل المذنبين ، مما حدثتك عن كثير منه في المناسبات الماضية . حتى اذا انتهت رحلته من جهنم أمسك فرجيل بابليس ، وأمسك